

سوسولوجيا الكتابات الحائطية في الفضاء الجامعي  
(دراسة ميدانية بجامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف)  
The Sociology of Wall Literature in University Space  
(Field Study at Hassiba Benbouali University of chlef)

مصطفى بحر محمد<sup>1\*</sup> ، زيان محمد<sup>2</sup>

<sup>1</sup> جامعة الشلف (الجزائر)، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر، m.mostefabehar@univ-chlef.dz

<sup>2</sup> جامعة الشلف (الجزائر)، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر، m.zian@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2023-05-05

تاريخ القبول: 2023-04-27

تاريخ الاستلام: 2023-01-30

ملخص:

تهدف هذه الدراسة للتعرف على مضامين الكتابات الجدارية والخريشات والرسومات المتواجدة داخل الفضاء الجامعي والكشف عن هذه الكتابات وطبيعتها عند مختلف الطلبة باختلاف تخصصاتهم، والوقوف على أسبابها؟ أهدافها؟ غاياتها؟ حيث توصلنا إلى أن مضامين الكتابات الحائطية عند الطالب تعددت ما بين كتابات متعلقة بالغش في الامتحانات وأخرى احتجاجية سياسية، وكتابات عاطفية وغرامية، بالإضافة إلى الكتابات الجنسية والعنصرية، مع التوصل إلى عدم وجود اختلاف في هذه الكتابات عند الطلبة حسب الاختصاص العلمي لديهم.

كلمات مفتاحية: السوسولوجيا؛ الكتابات الحائطية؛ الجامعة؛ الفضاء الجامعي؛ الطالب.

**Abstract :**

This study, through what was put forward, aimed at identifying the contents of the literature And scribbles and drawings in university space, and the disclosure of these writings and their nature among different students with different disciplines, What are its reasons? And its objectives? And its ends?

We found out the contents of the student's wall writings There's been a variety of writing about exam cheating Another is political protest, emotional and romantic writing in addition to sexual and racial literature There is no difference in this literature among students according to their scientific competence.

**Keywords:** Sociology; Wall Literature; University; University Space; Student.

\* المؤلف المرسل.

مقدمة:

تختلف وسائل التعبير لدى البشر وتنوع عبر آلاف السنين، وإن أقدمها وأهمها التعبير على مستوى جدران الكهوف والمغارات التي اعتبرت بمثابة أغرب ما تركه الإنسان البدائي عبر التاريخ. كما أعتبر المؤرخون وعلماء الآثار والأنثروبولوجيا «الكتابات الجدارية» أعرق ما أنجزته أُنامل الإنسان على مستوى جدران الأبنية المعمارية والمسلات والمعابد والمجسمات... وغيرها تمييزاً له عن بقية الكائنات الأخرى، لأنها استعملت لغاية توثيق حياته الماضية وحملت معانيه الحياتية وطقوسه ومعتقداته الدينية، وكذا لتواصله من خلال الصور والكتابات التي تجسد التاريخ والمآثر والأُمجاد في حضارات مصر وبلاد ما بين النهرين واليونان والرومان والهند والصين... وغيرها. كما اعتبرت الكتابات الجدارية أو الحائطية من أقدم وسائل الترويج عن مشاعر القلق والخوف والتساؤلات والمسائل المعقدة لدى الإنسان في مختلف المجتمعات والحضارات. فالجدار كان ولا يزال حاملاً لمختلف القضايا الاجتماعية والحياتية، ولا تزال الكتابات الحائطية حاضرة في عصرنا الحالي، وتمثل مشاهداً مألوفة في حياة الإنسان المعاصر.

يعيش الأفراد في المجتمع مختلف التفاعلات والظواهر الاجتماعية، حيث تلعب اللغة والكتابة والصور والرموز أدواراً هامة في نسج علاقات التواصل والرباطات الاجتماعية، ونقل المعاني والأفكار والمعارف على مستوى مختلف المؤسسات الاجتماعية (الأسرة، المدرسة، الجامعة، المصنع، الإدارة...) وعلى مستوى الفضاء العام (الشوارع والطرق والاماكن العامة والمعزولة...)، لتخلق أجواءً من الألفة والتفاهم والتواصل والتبليغ. وعلى هذا الأساس اخترنا تناول موضوع الكتابات الجدارية بمقاربة سوسيولوجية من خلال المرور بالمفاهيم من حالتها النظرية المجردة إلى حالة ملموسة لفهم وبناء الواقع الاجتماعي، وكذا المقاربة الكيفية (Approche Qualitative) في محاولة لتحليل النصوص العامة، والخطابات والتحليل النصي وترميز المواضيع لتفسير البيانات، على اعتبار الجامعة كفضاء تعليمي يضم نخبة المجتمع وصفوته، غير أنها لا تخلو من مظاهر الكتابات الجدارية الواضحة على حيطان المدرجات والقاعات التعليمية والأروقة والساحات، فيشعر البعض بالحرَج نحوها رغم محاولات المحو والإخفاء، وتدفع البعض إلى الاعتقاد في تزايدها المستمر ودليل على حالة غير سوية، وبالتالي يمكن القول أنها تحمل في طياتها الكثير من الدلالات التي نأمل في

فهمها وتوضيحها. وعليه قدمنا إشكالية البحث كما يلي: ما هي مضامين الكتابات الحائطية داخل الفضاء الجامعي؟

تفرعت عن الإشكالية التساؤلات التالية:

ما هي أسباب الكتابة على الجدران في الجامعة؟ وهل بالإمكان تصنيفها؟.

### 1. منهجية الدراسة:

تم الاستعانة بـ المنهج الوصفي كونه يساعد «الباحث على تنمية قدراته على فهم أنواع البحوث والإمام بالمفاهيم والأسس والأساليب التي يقوم عليها البحث العلمي، فهي تساعد الباحث على الاختيار السليم لمشكلة معينة لبحثه، وتحديدتها وصياغة فروضها واختيار وتحديد أنسب الأساليب لدراستها والتوصل إلى نتائج يوثق في صحتها» (دليو وآخرون، 2011، صفحة 46)، ولأن أكثر ما يميز المنهج الوصفي طريقته الواقعية في التعامل مع الظواهر، حيث يستوجب على الباحث اللجوء للبحث الميداني، ولكوننا جزء من المؤسسة الجامعية، فإن تواجدنا في الجامعة ساهم في تيسير استخدام هذا المنهج بالملاحظة والتسجيل والتصوير والتحليل داخل كليات ومعاهد الجامعة، ومحاولة تقديم شروح وتوضيحات، حسب ما يتم ملاحظته مباشرة دون أية واسطة، وبالتالي الوصول إلى جملة من النتائج الثرية. على اعتبار أن هذا المنهج يمثل «أسلوب أو طريقة لدراسة الظواهر الاجتماعية بشكل علمي منظم من أجل الوصول إلى أغراض محددة لوضعية اجتماعية معينة أو مشكلة» (سلاطنية و حسان، 2018، صفحة 141).

تمثل مجال الدراسة المكاني بجامعة حسيبة بن بوعلي قطب أولاد فارس بولاية الشلف الذي يبعد عنها بحوالي 12 كلم، وهو متواجد في الطريق الوطني رقم 19 المؤدي نحو بلدية تنس شمالا، وتم انجاز الدراسة في الفترة الزمنية الممتدة من 2021/10/12 إلى غاية 2021/10/30.

### 1.1. تقنيات الدراسة:

#### 1.1.1. الملاحظة:

اعتمدنا على تقنية الملاحظة من خلال نقل وتسجيل الكتابات الجدارية و«مشاهدة لسلوك الظواهر والمشكلات والأحداث ومكوناتها المادية والبيئية ومتابعة سيرها واتجاهاتها وعلاقتها،

بأسلوب علمي منظم ومخطط وهادف، بقصد التفسير وتحديد العلاقة بين المتغيرات والتنبؤ بسلوك الظاهرة» (وحيد دويدري، 2000، صفحة 317)، ولأن هناك بعض الظواهر والموضوعات التي لا يتمكن للباحث من دراستها عن طريق تقنيات أخرى، بل يستغني عن طرح الأسئلة عبر الاستمارة أو المقابلات بأنواعها ويستعين بها لتحديد أنماط وسلوكيات أفراد في مجتمع ما، من خلال ملاحظة الأفراد في تفاعلاتهم ونشاطاتهم اليومية.

### 2.1.1. تحليل المضمون:

اعتمدنا في هذا المقال على تقنية تحليل المضمون القائم على «الوصف الموضوعي المنظم والكمي للمحتوى الظاهر للاتصال (والقصد بالاتصال هنا كل المعاني التي يعبر عنها بالرموز المختلفة والكلمة أو الصوت أو الصورة أو الرسم، ويهدف هذا إلى الإجابة عن أسئلة مثل: من الذي يقول؟ ماذا يقول؟ ولمن وكيف يقول؟ وما الآثار المترتبة على ذلك؟» (جلي علي، 2012، صفحة 142)، وبناء على ذلك فقد تم تحليل محتوى الصور التي تم جمعها، برصد مجمل الكتابات وإحصائها على مختلف أماكن تواجدها داخل أسوار الجامعة وتحليلها تحليلًا سوسيولوجيًا ترجمناه في عناصر أساسية في المتن، حيث لم يتم تصنيفها اعتباريًا، بل بناء لطبيعة ومضامين هذه الصور والكتابات المحررة على بعض جدران الجامعة من طرف الطلبة الجامعيين.

### 2.1. أهداف الدراسة:

- محاولة رصد التدوين الجداري في الجامعة باعتباره مجال حيوي متحرك يضم نخبة المجتمع.
- محاولة رصد أشكال الفوضى التي ترتسم على الجدران الجامعية لتعبر عن ثقافة جديدة محمّلة بخطابات خارجة عن القواعد، ورغم أنها محظورة وممنوعة، إلا أنها تنتشر خارج النسق المؤلف.
- الكشف عن طبيعة الكتابات الحائطية لدى الطلبة كجانب من التدوين الذي يمتاز بالتلقائية والعفوية تارة، وتارة أخرى يمتاز بالجمالية الفنية التي تنسجم مع جوانب التمرد والاحتجاج ذاته.

## 3.1. أهمية الدراسة:

- تشجيع الباحثين في علم الاجتماع أو العلوم الأخرى للاهتمام بدراسة التدوين والكتابات الجدارية على اعتبار أن «الجدران تتكلم وتقول وتصرخ»، وتحمل مشاغل أفراد المجتمع واحتياجاتهم وطموحاتهم .
- إثراء الدراسة في هذا الموضوع على اعتبار أن البحوث في هكذا مواضيع نادرة، خصوصاً الدراسات السوسولوجية، والسبب يرجع عادة للجهل بالفاعلين الأساسيين داخل المجتمع، مما يصعب من إنجاز دراسات ميدانية، وكذا إخفاء هذه الكتابات من طرف الأفراد والمؤسسات التي تعتبرها كنوع من الانحراف والتشويه للفضاء الاجتماعي.
- مساعدة صناع القرار داخل المؤسسة الجامعية وتنويرهم من خلال النتائج المتوصل إليها، والعمل على فهم الظاهرة للحدّ من انتشارها.

## 2. دراسات سابقة:

دراسة بلال عوض سلامة: جاءت الدراسة تحت عنوان "سوسولوجيا الكتابة بالحمام تحليل مضمون كتابة ورسومات المراهقين في حمام المدارس الثانوية ببيت لحم، فلسطين"، حيث هدفت للتعرف على مضمون هذه الكتابات والفروق في الكتابة والرسوم، من حيث الكمية والمحتوى على أساس النوع الاجتماعي، والتجمع الجغرافي، (الريف الشرقي والغربي ومنطقة الوسط)، ومن جانب آخر التعرف على رأي واتجاهات الأخصائيين حول الكتابة في الحمام، ولأجل تحقيق هدف البحث، تم الاعتماد على المنهج الوصفي الكيفي والكمي في وصف وتفسير الكتابات والرسومات في الفترة الممتدة بين 2012-2013، وذلك من خلال الاعتماد على أسلوب تحليل المضمون للكتابات في الحمامات والمقابلات مع الأخصائيين الاجتماعيين، وشكلت وحدة الاهتمام والمعينة للبحث: الكتابات والرسومات الموجودة في (40) مدرسة ثانوية في محافظة بيت لحم موزعة (20 حمام للإناث و20 حمام للذكور)، وقام الباحث بتطوير مقابلة مقننة، هدفها تقصي مواقف وآراء وتفسيرات 36 من الأخصائيين الاجتماعيين للكتابة، والعاملين في تلك المدارس (سلامة بلال، 2015، صفحة 45).

دراسة ماجد خليل الجبريني وسمير أحمد أبو زنيد: هي دراسة تحت عنوان " الكتابة على جدران مؤسسات التعليم العالي الفلسطينية، الدوافع والسلوك، حيث هدف الباحثان من خلالها إلى التعرف على الدوافع والسلوك وراء الكتابة على جدران مؤسسات التعليم العالي من وجهة نظر طلبة الجامعات الفلسطينية بمحافظات الخليل، حيث استخدمتا في دراستهما على المنهج الوصفي التحليلي لفهم وتحليل الدوافع والسلوكيات وراء الكتابة على جدران مؤسسات التعليم العالي، وقد بلغت عينة الدراسة 679 طالبا وطالبة موزعين على 444 إناث و235 ذكور، وبخصوص أداة الدراسة فقد قام الباحثان ببناء مقياس خاص (الإستبانة) وتضمن المقياس تصنيف الدوافع والسلوكيات وراء الكتابة على جدران مؤسسات التعليم العالي في 19 دافع وسلوك بعد أن أخضع المقياس للتحكيم من قبل ذوي الاختصاص.

خلص الباحثان في الختام إلى كون الظاهرة ما هي إلا تفرغ نفسي لمكونات الطالب نظرا للظروف المحيطة به، وأن ما يكتب على جدران هذه المؤسسات ما هو إلا كتابات عابرة لا تنم عن وجود ثقافة مدمرة مثل ثقافة العصابات (الجبريني و أبو زنيد، 2020).

دراسة بوعلام باي: تندرج الدراسة ضمن أطروحة دكتوراه علوم في علم الاجتماع، جامعة تلمسان، الجزائر، تحت عنوان "هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الجغرافية، جامعة تلمسان أنموذجا"، حيث هدفت الدراسة إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات البحثية أهمها: ما مضمون الكتابات الجغرافية ( الخربشات) المنتشرة بالوسط الجامعي؟ وما هي الأسباب وراء استفحال الممارسة الجغرافية بالفضاء الجامعي؟ لماذا هذا الحضور المكثف للمدس على مستوى مضامين هكذا كتابات؟.

تبين من خلال الدراسة أن مضامين الكتابات الجغرافية تعكس ملامح ثقافة الطلبة المشتركة ومنه هوياتهم، وبرزت في شكل كتابات هامشية، نتيجة سلطة المنع الاجتماعي الممارس من طرف مؤسسات التنشئة الاجتماعية عامة. كما يلجأ الطلبة إلى ممارسة الكتابات الجغرافية كإستراتيجية للتعبير عن ما يكرهه من احترام أو احتقار، أو تبجيل أو امتعاض لشخص أو جماعة ما، وفي ذلك الوقت يحاول إرسال رسائل مشفرة للآخر، كما اتضح من خلال المضامين الجغرافية مؤشرات، مواقف منحرفة نسبيا عن المرامي الرسمية للمؤسسة الجامعية (باي، 2013).

دراسة كنزة جبار: قدمت الباحث دراستها في إطار اشتغالها لنيل شهادة ماجستير في علم النفس الاجتماعي لسنة 2014، وكانت بعنوان " اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية: دراسة ميدانية لعينة من الطلبة الجامعيين بجامعة الحاج لخضر، باتنة"، حيث تمحورت مشكلة الدراسة حول التساؤل الآتي: ما طبيعة اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية؟ ومن هنا حددت الباحثة جملة من الافتراضات أهمها: أن اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية أقرب إلى الايجابية، وأن هناك فروق ذات دلالات إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاههم نحو الكتابات الجدارية.

اختارت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي في دراستها، وعلى تقنيتي الملاحظة والاستبيان كأدوات لجمع المعلومات، وكان اختيار العينة بطريقة عرضية ممثلة في مجموعة من الطلبة الجامعيين من اختصاصات مختلفة، مكونة من 154 طالبا وطالبة، وجاءت نتائج الدراسة كالآتي:

كشفت الدراسة عن اتجاه أقرب للسلبية في الكتابات الجدارية فيما يخص الطلبة الجامعيين، والتي شملها مقياس اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية لعينة الدراسة سواء كانوا ذكورا أو إناث، كما لم تكشف النتائج عن وجود علاقات دالة بين الاتجاه نحو الكتابات الجدارية وامتغير الاختصاص، وتبين من خلال التراث النظري للدراسة إضافة إلى الملاحظات والنتائج الميدانية، أن الجامعة والمرافق الجامعية الأخرى كالإقامات تكثُر فيها الكتابات الجدارية، ناهيك في انتشارها في المراحيض وغرف النوم والأبواب والمدرجات وعلى الطاولات والكراسي (جبار، 2014).

دراسة محمد زيان ومصطفى بحر محمد: هي عبارة عن ورقة بحثية ميدانية مقدمة ضمن الاستكتاب الدولي " الجداريات والكتابات الحائطية في المجتمعات العربية- التحليلات والتأويلات، إشراف: محمد زيان، تحت عنوان "الغرافيتيا والأبروتيكية بين الكبت والحرية، لدى عينة من الشباب الحائطيون: دراسة أنثروبولوجية في الوسط الحضري"، وقد وردت إشكالية الدراسة حول ماهية التضمينات والرسائل الفكرية والإيديولوجية التي تنتجها الغرافيتيا الإبروتيكية لدى الشباب الحائطيون في المدينة؟، وقد تمخضت عنها الأسئلة الفرعية التالية: هل يؤكد الشباب من خلال الغرافيتيا على الخصائص الجسدية والبيولوجية المبنية على أساس الاختلاف بين الجنسين في المدينة؟ وهل تؤكد الغرافيتيا على الفوراق الجنسية لدى المراهقين والشباب في الأحياء والشوارع المدينة؟ وهل يمكن القول أن العزلة وصعوبة التحكم في السلوكات الجنسية هي التي تدعو الكثير

من المراهقين والشباب لاستدعاء عنف استعمال الغرافيتيا الجنسية لتجسيد صورة الإنسان المتحرر؟.

تلخصت أهداف الدراسة في محاولة فهم طبيعة الرسومات الغرافيتية لدى الشباب كمجال واسع للتعبير عن واقع اجتماعي أقلّ ما يقال عنه أن عاجز عن استيعاب طموح وتصورات الشباب، بل إن من الضرورة بمكان عدم التغاضي عن الصعوبات الجمة التي يلاقها هؤلاء في التعبير عن ميولاتهم ورغباتهم الجنسية، ولهذا فالتعبير عنها سواء في الهامش أو الأماكن المعزولة والمزوية (المظلمة) دليل ربمّا على الكبت والقيود التي يمارسها المجتمع بشكل غير واع تجاه الجنسين، ولا يوفر لهم السبل المناسبة والطبيعية لممارسة الجنس أو الحديث عنه خارج إطار غرفة الزوجية والبيت، دون خرق للضوابط الاجتماعية.

بخصوص منهجية الدراسة فقد زاج الباحثان بين التحليل السوسيولوجي والبحث الأنثروبولوجي الذي سمح بجمع مجموعة من المعطيات حول كل ما تم كتابته في أحياء ولاية الشلف وشوارعها والقيام بتصويرها بألة التصوير، هذا وقد تشكلت عينة البحث من المراهقين والشباب ما بين 16 سنة إلى 35 سنة، وعددهم 48 شاب وكانت المقابلات تتم في مجموعات من 05 إلى 8 وعادة في أماكن عامة (مقاهي، ملاعب، تجمعات شبانية في الأحياء...) عن طريق تقنية المقابلة البورية.

خلص الباحثان في النهاية إلى أن أغلب حالات الدراسة أكدت أن الاختلافات البيولوجية والجسدية بين الرجل والمرأة لا تحتاج للإثبات، وتعكسها الغرافيتيا الجنسية العنفية، بما تحمله من تطرف وعدم احترام للخصوصيات الشخصية للأفراد، حيث تتخطى حواجز العفة والحشمة التي يعرفها المجتمع، إلى التعبير عن المكبوتات الجنسية، بصورة علنية (زيان وآخرون، 2019).

#### نقد الدراسات السابقة:

لا نخفي القيمة العلمية التي مثلتها الدراسات السابقة والاستعانة بها في كتابة هذا المقال العلمي، إلا أننا نعتقد أنها لا تزال قاصرة في الإحاطة الشاملة بموضوع الكتابات الجدارية، من حيث الأهداف والغايات... وغيرها، وبسبب وجود فجوات منهجية وميدانية، وفي مقدمتها المناهج

والعينات التي اعتمدت عليها أغلب الدراسات، وعادة ما اعتمد أصحابها على مناهج غير واضحة وعينات مجهولة وغير محددة بوضوح كما هو معروف في الدراسات الإحصائية، حيث لا تعرف بياناتهم الشخصية وتوجهاتهم الفكرية وطبقاتهم الاجتماعية...، مما يدفعنا للقول أنها دراسات نوعية أكثر منها كمية وهو ما سيدفعنا مستقبلاً لتبني مقاربات جديدة تتناول الجوانب اللسانية والتداولية التي تبحث في الاستعارات والكنيات والأيقونات والرموز والمعاني واللامعاني.

### 3. مفاهيم الدراسة:

#### 1.3. الكتابات الجدارية:

يظهر هذا المفهوم في لغات العالم بين معاني مختلفة، ففي اللغة الإغريقية نجد كلمة (Graphein) وتعني يكتب، يرسم، وبعض المرات يلون، أما في اللغة اللاتينية فأصل الكلمة يعود لكلمة (Graffiare) وتعني يخربش ويخدش ويكشط. في حين نجدها في اللغة الإيطالية مشتقة من كلمة (Sgraffito) وتعني يخدش ويخربش، وبعدها تطور اشتقاقها، فكلمة (Graffito) مفرد كلمة Graffiti ومعناه كتب وخدش أو خمش أو حك سطحاً. وبشكل عام تشير كلمة غرافيتي في اللغات الأوروبية إلى «أي كتابة أو رسم أو نقش أو خدش أنجز باليد على الجدران» (باي، 2012، صفحة 85)، وكما يعرفها الدكتور طيبي غماري على أنها: «تلك الكتابات والرسومات الموجودة على مختلف الدعائم الموجودة في الفضاءات العمومية، والحاملة لدلالات ثقافية وسوسولوجية تساعد على وعي الحالة الاجتماعية للمجتمع» (طيبي، 2015، صفحة 104).

#### 2.3..الفضاء الجامعي:

أو الجامعة وهي «مؤسسة للتعليم العالي تتكون من عدة كليات تنظم دراسات في مختلف المجالات وتخول حق منح درجات جامعية في هذه الدراسات» (حمدان، 2008، صفحة 50).

#### 3.3. الطالب الجامعي:

الشخص الذي «اكتسب عن طريق الدراسة النظامية الطويلة بالجامعة دراسة أكاديمية عليا أو أكثر، على أن يحصل على معرفة تفصيلية ومهارة في البحث والتحليل النقدي في ميدان دراسته» (حمدان، صفحة 87).

### 4.3. الغرافيتيا الطلابية:

عرفها الدكتور بوعلام باي بأنها «مزيج من الكتابات والرسومات والخريشات التي يدونها الطالب بخط يده، بأكثر من لغة وأسلوب وشكل، تتضمن كلمات، وأرقاما وأشكالا هندسية، وصورا مختلفة ومتباينة الأحجام والألوان، استثمر في تجسيدها وسائل متعددة: طباشير، أقلاما، فحما أو شمعا وحتى برازا، وقد تموضعت على وسائط غير معهودة كالجدران والأبواب والأعمدة والمناضد والطاولات والمكاتب والكراسي وما شاكلها» (باي، 2019، صفحة 19).

### 4. لمحة تاريخية حول الكتابات الحائطية:

يعود تاريخ الكتابة على الجدران إلى «عصور ما قبل الميلاد، حيث كان الإنسان يدون كل ما يتعلق بحياته على جدران الكهوف والصخور ليكشف عن لغته، ويعبر عن يومياته في شكل حروف ونقوش يسرد بها حكاية المكان وكيفية العيش فيه، فالإنسان مارس الكتابة على الجدران منذ قديم الزمان ومنذ معرفته للكتابة، هذه الأخيرة التي بواسطتها تمكن من إثبات وجوده بها عن طريق آثار مروره» (باي، 2019، صفحة 11).

يجمع الدارسون على أن أصل "الممارسة الغرافيتية" ليست وليدة العصر، بل ممارسة يومية غزت مختلف التضاريس المجتمعية، قام بتوظيفها الفرد / الجماعة للتعبير عن آمانيته ومكبواته وأحلامه وآلامه، لتعكس خصائص المجتمعات، مما جعلها تتباين من حيث الشكل والمضمون، والفضاء الذي انبلجت فيه، ومنه حسب القيم الثقافية لممارستها، وكذا نوعية الفراغات العامة، وفضاءات تواجد حاملها. بل يعتقد بعضهم بأنها «سبقت الكتابة نفسها، حيث تزامن الفعل الغرافيتي مع الإنسان الأول الذي لم يتمكن من مقاومة رغبة تخليد أثره، وبالتالي هويته الشخصية والاجتماعية» (بوعلام، 2014، الصفحات 25-26).

ظهرت الكتابات الحائطية بالجزائر في البداية «كأداة للتوعية والتعبير عن النضال إبان الاحتلال ثم غابت نهائيا وعادت للظهور وانتشرت بعدما عرفت البلاد موجة الأحداث العنيفة والانقلابات السياسية، وتميزت بالعنف والمأساة التي عاشها الناس آنذاك، وكتبت حتى بدم ضحايا

الإرهاب، بالإضافة إلى الكتابات ذات البعد الاجتماعي والثقافي التي تبرز أحلام الشباب في الهجرة إلى الخارج وتكشف عن معاناتهم من البطالة والفقر والتمييز» (زيان وآخرون، صفحة 17).

### 5. مضامين الكتابات الحائطية داخل الجامعة:

ركزنا خلال الدراسة الميدانية على مجموعة من الصور، التي تم التقاطها بواسطة آلة تصوير في مختلف كليات والمعاهد الجامعية، وحفظها لتسهيل عملية الرجوع إليها خوفاً من محوها وتدليسها وللتوضيح عمدنا إلى جمعها وتصنيفها وترتيبها، حسب الموضوع في وحدات تساعدنا فيما بعد لتحليل عناصر الظاهرة، وتحليل مضمونها، وكان بالإمكان الحصول على نسب مئوية، وفق أربعة محاور، عبرنا عنها بوحدات للتحليل في الجدول رقم 01- يتضمن الصور الملتقطة من على الجدران ومختلف الدعائم الأخرى، إضافة إلى عدد الصور ومواضيعها ونسبة تكرارها.

#### جدول 1

طبيعة الكتابات الحائطية التي تم جمعها من جامعة أولاد فارس

طبيعة الكتابة الحائطية	العدد	مضمون الصور ومواضيعها	%
كتابات الغش في الامتحانات	221	ملخصات محاضرات ودروس + أشكال وبيانات هندسية + فقرات مجتزئة من المحاضرات + رسومات خرائط	24.4
الكتابات الإحتجاجية أو السياسية	122	عبارات تعبر عن رفض الواقع المعيشي + عبارات للحرقة والدعوة إلى الهجرة + عبارات الإحتجاج على مصير الطالب في الجامعة وبعد التخرج	13.46
الكتابات العاطفية والگرامية	195	صور مرسومة لأشخاص + رسم قلوب وتعابير عاطفية + كلمات غزل + أرقام هواتف + أسماء لأشخاص + عبارات حسرة على الفراق	21.52
كتابات جنسية وعنصرية	368	كلمات سب وشتيم عبارات تعبر عن العنصرية بين الطلبة + كلمات تمييز عرقي (لون البشر + شكل الشخص)	40.62
المجموع	906	تكرار العبارات والصور	100

المصدر: من إعداد الباحثان.

ينبغي التوضيح أن مجموع الكتابات الحائطية، هي لا تمثل كل الكتابات الموجودة على مستوى الجامعة، كون القائمين على أمن وحماية الجامعة يقومون بمحوها وطلائها بشكل دوري، لكن الأهم في الأمر هو أننا نعرف بنسبة تكاد تقارب 80% أن أصحابها هم طلبة جامعيون.

نلاحظ من خلال الجدول رقم 01 أن طبيعة الكتابات التي يخطها ويرسمها الطلبة داخل أسوار الجامعة بالإمكان تصنيفها في أربع وحدات رئيسية للتحليل من اجتهاد الباحثين:

### 1.5. كتابات الغش في الامتحانات:

يتضمن الكتابات الموجودة على طاولات الدراسة أو المقاعد أو أحد الدعائم والجدران القريبة للرؤية داخل المدرجات والقاعات، حيث خطت هذه الكتابات بأقلام متنوعة (أقلام لباد، أقلام رصاص) وتوضح مقتطفات من نصوص محاضرات مقاييس يدرسها الطلبة، وبعض الأشكال والبيانات الهندسية ورسومات خرائط، ويكتب هذا النوع من الكتابات عادة قبل وأثناء الامتحانات الرسمية، كنموذج للغش لدى الطالب، ويعتمد عليه عوض المراجعة والفهم لما تلقاه خلال الفصل الدراسي، والذي يعتبره أسهل الحلول للظفر بعلامة جيدة في الامتحانات، وعدد مجموع صور الكتابات الحائطية التي تم التقاطها داخل الجامعة حوالي 221 كتابة بنسبة 24.4%.

عبر بعض الباحثين عن نوع هذه الكتابات على غرار الدكتور "باي بوعلام" والتي سماها بـ "غرافيتيا التحراز والمقصود بها: عملية النقل (Le Copiage) الجزئي أو الكلي للمعلومات التي يحتاجها الطالب للإجابة في الامتحانات بهدف النجاح في المقياس، يتموضع على وسائط متعددة بعضها يهندس الفضاء الجامعي (الطاولة، الجدار، العمود، الكرسي...) والآخر جزء من جسم وهندام الطالب الممتحن (اليدين، الذراع، الفخذ...) (باي، 2013، صفحة 21)، ومن خلال تنقلنا في مختلف كليات الجامعة لمسنا نفس الكتابات والمضامين على الطاولة التي تعبر على هذا النوع من الكتابات.

### 2.5. الكتابات ذات المضامين السياسية:

وجدنا ما يوحى للكتابات الجدارية ذات المضمون السياسي داخل القاعات وفي مختلف جدران الجامعة، ويمكن أن نصنفها ضمن خانة غرافيتيا الاحتجاج أو الغرافيتيا السياسية والحركات الاجتماعية الاحتجاجية، التي تتجسد في عبارات ترفض الواقع المعيشي والسياسي، من أمثلة ذلك عبارات مشهورة موجودة في الكثير من الولايات الجزائرية مثل: (الأحلام شوارما والواقع عدس، يتنحوا قاعا، الوطن مثل الأم إلا الجزائر تقول مرت باباك... وغيرها)، حيث نلمس من

خلالها استياء جماعي تمارسه جماعة تحمل ثقافة مشتركة وتحمل الأفكار ذاتها عن الواقع الذي لا يوجد ما يوحي أنه سيتغير، وامتدت هذه الثقافة إلى داخل المؤسسات التعليمية العليا، الأمر الذي جعل المدونين يخطون عبارات تتضمن الهجرة والحرق والهروب والفرار (كرطوطونة في روما ولا نتوما، ياكلي الحوت ومايكولنيس الدود، رانا رايجين ومخليهاكم، أهرب يا الطاهر...) بحثاً عن الاستقرار الذي يمكن الفرد من بناء مستقبله في مجتمع يتقبله كفرد فاعل.

يحمل أغلب الطلبة أفكار سلبية تجاه مستقبلهم المهني والوظيفي وتموضعهم الاجتماعي وأدوارهم السياسية والجمعوية، نظراً لعدد الطلبة المتخرجين البطالين خارج الجامعة ممن أنهوا دراستهم ربما في نفس الجامعة، هذا ما ترجمته نسبة 13.46% من مجموع صور الكتابات الحائطية خلال العمل الميداني.

يعكس هذا الرقم -في نظرنا- عدم اهتمام الطلبة الجامعيين بمواضيع السياسة إلا في المناسبات الانتخابية، حيث يعبرون عن عجزهم في فهم المسار السياسي للبلاد، كما يُحملون رجال السياسة أسباب الفشل الذي يعرفونه في حياتهم، والذي من بوادره الأساسية تغليب النساء على الرجال واستيلائهن على الوظائف والمراكز الهامة في المجتمع، ولقد عبرنا بعض الطلبة أن مواضيع السياسة تقع خارج نطاق اهتمامهم، بسبب العزوف عن الممارسة السياسية وامتناع غالبيتهم عن ممارسة الحق الانتخابي والتطوع في التنظيمات السياسية والجمعوية، بسبب الوضعية المتردية والسيئة للنشاط السياسي التي يمتاز بالضبابية والغموض والنفاق الاجتماعي على حد تعبير أحد الطلبة (السياسة لم تعد مهنة الرجال بل هي مهنة المنافقين والشياطين وأصحاب الشكارة).

### 3.5. الكتابات العاطفية والغرامية:

يتمثل هذا النمط من الكتابات داخل أسوار الجامعة بنسبة 21.25% من مجموع الكتابات الحائطية التي حصلنا عليها، حيث أن مضامين هذه الكتابات تندرج ضمن الكتابات الرومانسية أو العاطفية والغرامية، التي عرفها الدكتور أحمد شراك بأنها «تلك الغرافيتيا التي تركز على تيمية الحب والعشق، وتشمل كل أنواع الخطاب من مكتوب ومرسوم، للتعبير عن مكنونات الحبيب تجاه حبيبه، وفي العادة يعبر عنها برسم القلب واستعارة التعابير الشعرية والعبارات الأنيقة وبكل اللغات» (شراك، 2009، صفحة 239).

يشمل هذا النوع من التدوين كل أشكال التعبير العاطفية الطلابية كالتعبير عن الحب والإعجاب أو الشعور بالوحدة والحنين والكره والتنافر...إنها تترجم أحاسيس ومشاعر الشباب التي تتدفق بالاندفاع والقوة والتسرع والانهار والانهياب، لتفرز عن صيحات تتجاوز الرقابة على الجدران، وتكون أحياناً منقولة في صور مرسومة لأشخاص وأشكال متنوعة (قلب منشطر، أو مكسور ودلالة لسيلان الدماء والدموع وسهام حروف...)، وتعاير عاطفية حزينة مكتومة ومكلمة يشوبها الانكسار والتفتت والتشتت والفرق والخانات.

تعتبر الكتابة الحائطية في هذا الشأن كنوع من الإعلان عن بداية قصص حب جديدة ورسائل غرامية مفتوحة على الفضاء العام، بدل الوقوف أمام المعني بالأمر والتصريح له بالإعجاب، لذا يلجأ المحرّر إلى التعبير على الجدار أو الطاولة أو المقعد أو أي دعامة أخرى، لأنه يرى أنها أنجع وسيلة لإيصال رسالته وقد يدفعه للكتابة سلوكه العفوي ومشاعر الحب، التي لا يملك قدرة التحكم فيها، هذا وتتضمن هذه الكتابات أيضا أرقام هواتف بغية التواصل مع الطرف الآخر أو أحيانا بهدف الانتقام والتشهير به...، وكذا تدوين أسماء لأشخاص أو ما يسمى بـغرافيتيا التخليد، وهو ما يقوم به المحرر بكتابة أو نقش اسمه متبوعاً باسم الحبيب المقصود بغرض تخليد ذكرى بداية علاقة الحب، وكرسالة على أنهم قد مروا أو جلسوا مع بعض في تلك الأماكن، لتبقى الكتابة شاهدة على عهودهم وأحلامهم وأحزانهم، كما نجد من ضمن الكتابات عبارات تتحسر على الفرق بين شخصين.

#### 4.5. كتابات حول الجنس والعنصرية:

يحتوي هذا النوع من الكتابات حسب الصور التي قمنا بجمعها على عبارات ذات محتوى جنسي وكلمات السب والشتم والمفردات الأيروتيكية، إضافة إلى الرسومات والأيقونات والرموز المعبرة على الأعضاء الجنسية (للرجل أو المرأة) ب نسبة 40.62%، و«تضطلع الكلمة البذيئة بعدة أدوار، منها أنها تستعمل للاعتداء اللفظي وتجسم موطن الحرية، ذلك أن معانيها المعجمية مصحوبة بأبعاد نفسية واجتماعية وسياسية، يجد فيها المدون مجال تعبير حرّ، وفي هذا يتجلى البعد التداولي» (العلوي، 2021، صفحة97)، وهو عادة ما يلجأ إليه الطالب كنوع من تفرغ للمكبوتات حسب رأي المختصين النفسيين وعلم الاجتماع، وإضافة إلى السلوكات اللفظية في هذا

الشأن يأتي الدور على التدوين على جدران الجامعة بهكذا كلمات ورسومات، ومختلف الكتابات التي تضمنت عبارات عنصرية، في التمييز العرقي سواء بالشكل أو اللون فكلمة "الكحلوش" و"الباباي" و "العربي كحل الراس" والتنمر بسبب عيب جسدي أو عقلي "القزوم"، "لعوج"، "المعوق"، "المهلول"، الموجودة في بعض الصور تعبر عن لون الشخص الذي كُتب له الخطاب الجداري، ويتبين من خلالها التوصيف المتكرر لطبيعة التدوين الجداري، بأنه -في نظرنا- «سليل فضاء خارج عن الأطر التعليمية كالمدارس والمعاهد والجامعات، إنه فضاء حضري وليد ثقافة المدن والأحياء الشعبية والطبقات الاجتماعية الكادحة، لتحتضنها الساحات العامة والأزقة الضيقة...وغيرها من المساح التي تشكل فيها الجدران مساحات تدفع المدونين للتحرّر من القيود التعليمية والضوابط المؤسسية والقوانين الأخلاقية».

وقفنا من خلال الملاحظات المسجلة عن مختلف التدوينات أن بعض مدونيهما تركوا إمضاءات تعبر عنهم في آخر كل كتابة أو رسم معين، والتي تعبر عن اسم فاعليها كدلالة على وجود هذا المدون هنا في وقت من الأوقات، والتي في العادة ما تكون أسماء استعارة مثل - Phobia- Alpha - Milan، كلها أسماء مستعارة يختبئ وراءها الطالب المدون، الأمر الذي يؤكد أن صاحب الكتابات الحائطية دائما يكون مجهولاً وغير معروف الهوية، هذا من جانب ومن جانب آخر وقفنا عند بعض الكتابات التي تكون فيها الكلمات أو الجمل خاطئة في الكتابة سواء على مستوى النحو أو إضافة حروف للكلمات لا معنى لها مثلا عوض يكتب لفظ "الحرية" بهذا الشكل يكتبه الطالب بشكل آخر مثل "الحرورية" أو سالييم عوض سليم، وهذا أمر يستدعي الوقوف عنده فالطالب الجامعي يفترض فيه أن يحسن الكتابة دون أخطاء، وهذا ما قد يدل عليه المستوى اللغوي المتباين لدى هؤلاء الطلبة المشاركون في عملية الكتابة، أو ربما أن الخطأ في كتابتها بذلك الشكل مقصود والأساس هو المعنى.

لاحظنا من خلال دراستنا الميدانية أن بعض الأماكن التي تكثرت فيها الكتابات الجدارية، هي أماكن معزولة لا يتردد عليها الطلبة أو الأساتذة أو العمال أو الإداريون بشكل عادي، مثل الجدران الخلفية للمكتبات وجدران المراحيض وخلف المدرجات التي عادة ما تقع متباعدة مقارنة بمقرات الكليات وقاعات التدريس الأخرى، الأمر الذي يجعل الأمر سهلاً للطالب الذي يحزّر هذه الكتابات

والأيقونات والرموز، لأنه في عزلته عن التجمعات داخل الجامعة وبعيد عن الرقابة يرسم حدود الهامش الخاص به.

فيما يتعلق بالكتابة على الطاولة داخل مدرجات وقاعات التدريس، فإن عملية التدوين تتم في أوقات ما بين الحصص، حيث يفلت الطالب من الرقابة والضوابط القيمية والأخلاقية، وفي بعض الأحيان يكون أثناء الحصص التعليمية، حينما يكون الأستاذ مشغولاً بالشرح أو الجلوس على مكتبه، وعليه نعتقد أنها سلوكيات تنم عن اللامبالاة وعدم الاكتراث نحو حجم المهمة الملقاة على عاتقهم، أكثر منها سلوكيات للفت الانتباه نحو طرف ما يراقبهم، أو أن هذه سلوكيات تساعد في التقليل من الضغوطات اليومية والاندماج في الوسط الطلابي. وفي كل الحالات إنها ممارسات مشينة تساهم في تشويه المنظر الجمالي للجامعة وهيكلها المختلفة داخل الكليات وقاعات التدريس والمراحض العامة للطلبة والجدران. الأمر الذي يدفعنا للتنبيه حول مدى وعي الطالب ومستواه الفكري والثقافي في الحفاظ على الفضاءات الخاصة والعامة في الجامعة، فهي أماكن للتعليم والتزود بالمعرفة والتنافس والانتساب لجماعة النخبة أو الصفوة.

#### استنتاجات عامة:

يتبين لنا من خلال البحث الميداني مدى تنوع مضامين الكتابات الحائطية داخل الفضاء الجامعي ما بين كتابات الغش في الامتحانات، هذا إضافة إلى الكتابات السياسية والاحتجاج التي يتجه إليها الطلبة كأسلوب للتعبير عن مشاكلهم داخل الجامعة، وكذا الكتابات العاطفية والغرامية، مروراً بـغرافيتيا الجنس والتمييز التي تعدّ كذلك شكلاً آخر يعبر من خلاله الطلبة عن مكبوتاتهم النفسية ونعت بعضهم البعض خصوصاً التمييز من خلال لون البشرة. في حين استنتجنا أن التخصص العلمي للطلبة لا يؤثر في مسألة الكتابات الحائطية داخل الجامعة، فهذا ما لمسناه من خلال الكتابات والرسومات الموجودة على مختلف الكليات والتي هي نفسها الموجودة في كل كلية تقريبا، لتبقى الدوافع والأسباب نفسها بغض النظر عن مستوى أو تخصص الطالب المدون لهذه الكتابات الحائطية.

خاتمة:

تمثل ظاهرة الكتابات الحائطية من الظواهر التي يصعب تناولها في مقارنة سوسولوجية بحثية، حيث ينبغي اعتماد مقاربات متعددة (تاريخية، قانونية، لسانية، تداولية، فنية...)، كونها تمثل -في نظرنا- وثيقة اجتماعية تحمل فكراً متعدد المشارب والمنابع، بما يدفعنا للقول أنها ظاهرة تحتاج للتشريح اللغوي والعلمي والثقافي والاجتماعي، وعليه نحاول أن نلخص النتائج التالية:

- الكتابة الجدارية ظاهرة اجتماعية لها أبعاد وأهداف قد تؤسس لظواهر خطيرة في عالم الجامعة والطلبة، الأمر الذي يستدعي الوقوف عندها بالدراسة الشاملة، حيث لاحظنا أن المؤسسة والفاعلين يتصدون لها بالإزالة عن طريق الأصبغة والدهان، لكن ليس بمقدورهم إزالتها من العقول أو منعها من الانتشار.
- يمثل التدوين والكتابة الجدارية بمختلف مضامينها متنفساً فريداً للطلاب لتفريغ مكنوناته وآلامه وأحاسيسه، وهي سلوكيات تتعارض مع القيم التعليمية والأخلاقية للفرد المتعلم داخل فضاء كالفضاء الجامعي.
- أغلب الكتابات مكتوبة بأساليب عامية وغير سليمة من الناحية اللغوية، أي أنها تمثل نوعاً ما توقيعات أصحابها، كما لو أنهم يوقعون بطريقة تنتهك الفضاء الجامعي الذي يقتضي المعرفة بأصول اللغة والنحو الصرف.
- تفتقر غالبية الكتابات على العنصر الجمالي، فهي لا تزين الجدران بقدر ما تمثل تشويهاً ومساساً بالحريات والأخلاق.

في الأخير لا ندعي أننا قمنا بالشيء الكثير سوى مساءلة الذهنيات والمنطلقات لدى فئة الطلبة الجامعيين، ومحاولة دراسات جزء من تدويناتهم التي تعبر عن انتماءاتهم الاجتماعية، وتدلل على نوع من الانصهار بين ذواتهم وبين الفضاءات التي ينتمون إليها، (الحي السكني، الحي الشعبي، الأزقة، الممرات، المناطق الهامشية...) على اعتبار أن هذه الفضاءات قد عرفت بهذه الكتابات الجدارية وصنعتها، ويتم نقلها ونشرها إلى فضاء الجامعة.

### قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد شراك. (2009). الكتابة على الجدران المدرسية- مقدمات في سوسيولوجيا الشباب والهامش والمنع والكتابة. المغرب: منشورات دار التوحيد للنشر والتوزيع ووسائل الاتصال، ط1.
2. باي بوعلام. (2014). فعالية الجرافيتا النضالية في التعبئة الهوياتية خلال العهد الاستعماري، الجزائر أنموذجا. مجلة الإنسان والمجتمع، العدد 8، جوان، جامعة تلمسان.
3. بلقاسم سلاطنية، والجيلالي حسان. (2018). مدخل لمناهج البحوث الاجتماعية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط2.
4. بوعلام باي. (2012). الوظيفة الأخرى للطاولة التعليمية: مقارنة سوسيولوجية لظاهرة الكتابات الجرافيتية. مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، عدد14.
5. بوعلام باي. (2013). هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الجرافيتية، (أطروحة دكتوراه علوم، غير منشورة). الجزائر، تلمسان، الجزائر: قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان.
6. بوعلام باي. (2019). واقع الجرافيتا بالفضاء الجامعي الجزائري: تعدد المضامين وتباين الغايات، جرافيتيا طلبة جامعة تلمسان نموذجا. مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، مجلد23، عدد4.
7. توفيق العلوي. (2021). نحو الشارع جرافمار. تونس: دار محمد علي للنشر.
8. رجاء وحيد دويدري. (2000). البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية. لبنان: دار الفكر العربي، ط1.
9. عبد الرزاق جلي علي. (2012). المناهج الكمية والكيفية في علم الاجتماع. مصر: دار المعرفة الجامعية، دط.
10. عوض سلامة بلال. (2015). سوسيولوجيا الكتابة بالحمام تحليل مضمون كتابة ورسومات المراهقين في حمام المدارس الثانوية بيت لحم. المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلد 8، العدد01.
11. غماري طيبي. (2015). الجرافيتي من أدب للغرباء إلى فن للاغتراب. مجلة عالم الفكر، المجلد 43، العدد03.
12. فضيل دليو، وآخرون. (2011). دراسات في المنهجية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط4.
13. كتزة جبار. (2014). اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية، دراسة ميدانية لعينة من الطلبة الجامعيين بجامعة الحاج لخضر، باتنة، (رسالة ماجستير غير منشورة). الجزائر: قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة.
14. ماجد خليل الجبريني، وسمير أحمد أبو زنيد. (2020). الكتابة على جدران مؤسسات التعليم العالي الفلسطينية، الدوافع والسلوك. المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد 4، العدد 9.
15. محمد حمدان. (2008). معجم مصطلحات التربية والتعليم. الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1.
16. محمد زيان، وآخرون. (2019). الجداريات والكتابات الحائضية في المجتمعات العربية، التحليلات والتأويلات. الجزائر: منشورات دارفيتامين الفكر للنشر والتوزيع، ط1.